التجريب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة _ أبعاده وتجلياته

الدكتورة: آسية متلف

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف-الجزائر

ملخص:

تتشكل الرواية باعتبارها نصا سرديا من رؤى خاصة و أفكار عميقة، ومواقف فلسفية، تنبثق ضمن رؤية فنية وموضوعية ذات امتدادات مختلفة ومتنوعة، بحيث يحرص الروائي على إظهارها في صورها المثلى و المتميزة والتي تنطوي على تقنيات سردية خاصة وآليات متنوعة تعمل على تشكيلها من الناحية الجمالية ، ولتحقيق هذه الخاصية لجأ الروائيون في الحقبة الأخيرة إلى الاغتراف من التجربة الصوفية كممارسة إبداعية ، إذ تمثل هذه الأخيرة منبعا ثريا لتوليد الشعرية والجمالية ، فأصبحت الرواية مدارا للتجريب ومجالا لاحتضان الصوفية فتداخلت الرؤية الروائية السردية والرؤية الصوفية التي منحت الرواية مسحة إنسانية عميقة الدلالة تختلف في مكوناتها النصية عن الخطابات الأخرى وتتجاوز قوانين الخطاب المتداولة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الصوفي ;الرواية العربية المعاصرة

ولتحقيق التميز والخصوصية الفنية بدأت الرواية تنتهج لنفسها نهجا صوفيا ، فسار اللجوء إلى التجربة الصوفية للانتهال والاغتراف من بحورها ممارسة إبداعية تؤكد حضور وجه جديد للغة، إذ بدا هذا البعد الصوفي يتجلى في العديد من النصوص من خلال تضافر مجموعة من العناصر التي تظهر هذه التقنية الفنية من خلال ظهور التناص مع الخطابات الصوفية وكذا التوليفات اللغوية الصوفية ، فالسؤال الذي نطرحه في هذه الورقة البحثية هو:

_ كيف يمكن رصد تلك العلاقة المعقدة بين الخطاب السردي والخطاب الصوفي؟

_ هل يكفي حضور المعجم الصوفي ، ودعاوى الصوفية في البنية النصية وملامح التناص مع هذا الخطاب داخل نسيج النص للحكم على صوفية النص الروائي ؟

_ هل تملك اللغة الروائية ما يؤهلها للصمود أمام الدفق اللانهائي الكامن في العبارة الصوفية؟وكيف يستطيع القارئ تلقي هذا النوع التجريبي في الخطاب الروائي؟

1_ التجريب الصوفي في الرواية_مفهومه وأبعاده_:

قبل الخوض في الحديث عن تجليات الخطاب الصوفي داخل الرواية يجدر بنا بداية الانطلاق من مفهوم التجريب الذي بات يلازم الرواية المعاصرة فهي " لا تتوفر على قوانين قارة أو ثابتة يمكن توهم الاطمئنان إليها باستمرار، لأنها كما يقول باختين _غير قابلة للتقنين بطبيعتها مادامت شكلا يبحث بشكل دائم ويحلل ذاته أبدا ويعيد النظر في كل الأشكال التي يستقر فيها من هنا صعوبة الحديث عن معايير جمالية "نموذجية أو قارة"[1]، فالرواية جنس أدبي مفتوح ينهل من مجموع الأجناس الأدبية على اختلاف طبيعتها وهذا ما يؤكد فضاءها التجريبي الذي يشكل أفقا مفتوحا متطلعا إلى إمكانات إبداع مختلف متعطش للمغامرة والمجازفة.

فأساس الخطاب الروائي التطور والبحث المستمر عن عوالم جديدة وآليات سردية خطابية مغايرة لكل ثابت ونمطي" فالتجريب الروائي يسعى إلى خلق الأشكال وهو بذلك يقدم على مغامرة تحطيم ثبوتية الأشكال الجاهزة ، إذ يقيم وجوده على اللانموذج أو على البحث عن نموذج ممكن مخالف، مفارق، متجدد باستمرار"[2]، فالرواية بطبيعتها تسعى الى تصوير الحياة بكل متغيراتها فكل ما فيها متحرك يأبى الثبات والاستقرار ومادامت عالما افتراضيا يتحرك من خلال مكوناته اللغوية وغير اللغوية يصبو دائما إلى البحث عن كل ما هو جديد فيتفاعل مع كل الأنماط التعبيرية التي تبعث بعبق روحي متميز في شكله ومضمونه، وقد حدد "صلاح فضل" ثلاث دوائر أو بنيات لتحديد ملامح التجريب وهي[3]:

- ابتكار عوالم متخيلة جديدة لم تعرفها السرديات السابقة مع القدرة على اكتشاف قوانين تشفيرها وفك رموزها لدى القارئ العادي بطريقة حدسية مبهمة ، ولدى الناقد بشكل منهجي منظم.
- توظيف تقنيات فنية لم يسبق استخدامها على مستوى الرواية ، وربما تكون قد جربت في أنواع أخرى تتصل بطريقة تقديم العالم المتخيل وتحديد منظوره أو تركيز بؤرته مثل:تقنية تيار الوعي أو تعدد الأصوات.
- اكتشاف مستويات لغوية في التعبير تتجاوز نطاق المألوف في الإبداع ، ويتم ذلك عبر شبكة من التعالقات النصية التي تتعالق بلغة التراث السردي أو الشعري أو اللهجات الدارجة أو أنواع الخطاب الأخرى لتحقيق درجات مختلفة من شعرية السرد.

ولعل أهم ما في هذه الملامح هو خلق عوالم متخيلة جديدة لأنها التقنية الوحيدة لإشباع رغبة الروائي في تشييد نصه وفق معالم تتجاوز وتخرق كل ما هو مألوف ونمطي وهي رؤية إبداعية مشروعة لكل روائي باحث يبحث عن التميز والتفرد بنصه وبأدواته وتقنياته السردية التي يتلاعب بخيوطها لينسج في آخر المطاف فسيفساء تبهر القارئ بألوانها وزخرفاتها.

وسعيا من الروائيين العرب لتحقيق الجديد والبحث عن أفق متميز لرواياتهم تهافتوا إلى الاغتراف من التراث ومحاولة الابتعاد عن الآخر فالتجريب الصوفي هو سعي للاختلاف وتغيير للتقنيات المستوردة ضمن المعايير الغربية فهو"لا يقلد تجارب أخرى في الكتابة الروائية ،سواء في الواقعية الأوروبية أو ما يسمى بالرواية الجديدة في فرنسا أو ما يسمى بالواقعية السحرية في أمريكا اللاتينية...ذلك أن الروائي التجريبي العربي يستوحي واقعه من مظاهره المتعددة وإيحاءاته ورموزه وأساطيره المعاصرة من أجل تشكيل خلفية معرفية وثقافية بمرجعيات الواقع العربي وخصوصياته وفي إطار المغامرة بكتابة نصوص روائية متعددة الأبعاد والمظاهر والتجليات"[4]، فكان النهل من التجربة الصوفية كتجريب جديد داخل الرواية هو ملاذهم، فحاولوا إضفاء توليفات لغوية تحمل نفحات صوفية سواء على مستوى توظيف المصطلحات الصوفية بما تحمله من كثافة دلالية ورمزية ،أو عن طريق تعالق نصهم بنصوص صوفية لتأكيد شعريتها ورمزيتها وهذان العنصران يشكلان يجسدان هذا النوع من التجريب.

إن النص الروائي في توظيفه للخطاب الصوفي على اختلاف طبيعته وتوجهاته يضمن لنفسه بنية فنية تنطوي على أساليب تعددت مناخاتها و مظانها، وتنهض على عنصر الاغتراف من الذاكرة والتراث العربي الصوفي ،فتذوب داخل

بنيات النص وتمزج بمادته وروحه، فتصير كأنها نسيج واحد يضم وحدات سردية تثري كلها الخطاب الروائي وتحدد وظائفه الجمالية والفكرية.

ولأن التجريب الروائي " لا يفرق بين الواقع والحلم ، وبين الواقع والأسطورة ، بين الواقع والتوقعات لأنه يعي بذاته ككتابة عن الواقع تستلهمه ولا تستنسخه ، تعيد تشكيل ملامحه ولا تسعى إلى بثه كما هو"[5]، وهذا ما يحققه التجريب الصوفي ، فالذات الإنسانية الروائية وجدت في كل من الكتابة الروائية والتجربة الصوفية تعويضا عن همومها باعتبار الكتابة الروائية وسيلة للبحث عن حلم مفقود تحاول هذه الذات جاهدة بلوغه ، وأن التصوف هو كذلك وسيلة للبحث عن الحقيقة المطلقة في عالم الغيب[6]، إذ حاول الروائيون المزج بين التجربتين لأنهما يلبيان حاجة ما في نفسية الكاتب، فمهمة كل من الروائي والصوفي الوصول إلى الحقيقة والتي تتجلى عند الأول في الحقيقة المطلقة ،وعند الروائي في حقيقة الوجود ، فكل منهما يحاول أن يقدم للذات الإنسانية ما ينفعها في وجودها وكلاهما يشارك الإنسانية همومها محاولا التخفيف عنها.

2_ تجليات الخطاب الصوفي في الخطاب الروائي:

إن الخطاب الصوفي المستدعى في الخطاب الروائي يأخذ من الثقافة الصوفية مرجعيته و مرتكزاته ومقوماته وخصوصياته وشعرية المحكي العجائبي فيه ، وهذا ما يميزه عن الخطابات الأخرى نظرا لمحمولاته المعرفية الغامضة و المرموزة ، فقد أدت المعرفة الصوفية إلى تشكيل نسق خطابي يختلف في مكوناته النصية عن الخطابات الأخرى بدعوة أنه يعبر عن تجربة داخلية هدفها الاتصال بالله ، ومن هنا فالخطاب الصوفي بمحمولاته العميقة الغامضة يتجاوز قوانين الخطاب المتداولة .

فالخطاب الصوفي هو خطاب مغرق في الرمز والتجريد ،إذ يصدر عن ذات تعيش حالة وجد وانفعال قوي في لحظة اتصال بالغيب وبالمطلق وهي حالة خاصة بالمتصوفة ،مما دفعهم إلى محاولة إيجاد لغة خاصة بهم تتسع لكلامهم وتعبر عما يقولون يقول أحد المتصوفة:" علمنا هذا إشارة فإن صار عبارة خفي"[7].

فالصوفي يعمل على تحميل اللغة أكثر مما تتحمل ألفاظها من معاني فيأتي المعنى غريبا عن القيم الثقافية السائدة وهذا ما يصعب عملية تلقي هذه الأنواع من النصوص ، في حين أن الخطاب الروائي مرتبط بالواقع يصدر عن وعي صاحبه بما هو موجود في الواقع قصد الكشف عن حقيقته من خلال صراع الإنسان مع الإنسان وصراعه مع الوجود ، فكيف ينصهر الأول في الثاني ليشكل عجائبية التأثيث السردي، فلكي يتجلى هذا الخطاب داخل الرواية يجب تضافر مجموعة من العناصر باعتبارها تقنيات تساعد على برزخية اللغة الروائية ضمن أفق التجلي الصوفي **كحضور المصطلحات الصوفية** بمفاهيمها وأبعادها يقول محمد أدادا:" بيدا أن المفهوم يحضر في الإبداع الجديد بصورة مخالفة للدلالة التقليدية _الدينية_والمفاهيم الصوفية تحضر بمحمولة دلالية وجمالية جديدتين تحتفظ بعمق الرؤية الصوفية وتنفتح على الدلالة المعاصرة"[8]، ومن الكلمات المتواترة الحضور :"الحب ،اليقين، الكشف والحلول والباطن ...إلخ.

3_ملامح الفكر الصوفي في رواية الولي الطاهر يعود لمقامه الزكي:

المتأمل في رواية "**الولي الطاهر يعود الى مقامه الزكي** "للطاهر وطار يستشف بجلاء الحضور المكثف لهذا الخطاب بمجموعة من المصطلحات والمسميات الصوفية التي ما فتأت تنفك عن البناء الفني للرواية ومما تجدر الإشارة إليه أن الرواية ليست رواية صوفية وإنما كما قال وطار نفسه:" ... بالدرجة الأولى أن لكل موضوع مواده وأدواته ، فأنت لا تستطيع أن تكتب عن إيديولوجية ما دون أن تستعمل لغة ومنطق ومفردات مناضليها ورجالها ومنظرها كذلك ...إنك إذا ما تواجدت في مسجد مجبر ليس فقط على استعمال لغة دينية ،بل على الوعظ والإرشاد كذلك "[9]. وهي سياسة لغوية ملغمة تضمن حياة خطابه الروائي،الا أن هذا لا يخفي ملامح الفكر الصوفي البارز في مبنى الرواية و مضمونها و احداثها و شخصياتها فالرواية تعتمد في المبنى ،على زمن دائري ،و مكان مبهم شبيه احد مفاهيم الصوفية الحالة التي يعيشها الصوفي فيتماهى في الزمان و المكان، ويعيش بغيبوبة يفقد فيها الوعي بالزمان و المكان فكأنه يعيش في كل الأزمان و الأماكن، يختلط فيها الماضي و الحاضر ."[10]

من ثمة فقد جاء معجمه اللغوي في هذه الرواية يجسد وبشكل جلي التجريب الصوفي في الرواية وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر"الولي، الشيخ ، الطاهر، الكرامات، الدعاء ،التضرع، الخلوة، المريدون، المقام....إلخ ، ولما كان العنوان أول ما تقع عليها عين القارئ لاستفزازه وفتح آفاق القراءة نلاحظ تميزه بالإثارة و الغرابة وكذا عمق الطرح و التفكير إذ تحمل بنيابته اللغوية صفة الخبر فلولي الطاهر يعود إلى مقامة الزكي هي جملة خبرية تامة المعنى مبتدأ وخبر و ملحقات الجملة.

و إذا نظرنا إلى عنوان الرواية نظرة تحمل نوعا من الحس الملحمي الأسطوري و الصوفي فإننا سنسعى إلى فك هذه البنيات اللغوية ولكن في سياقها الصوفي فالولي الصوفي " هو العبد الذي يتولى الله سبجانه أمره فلا يكله الى نفسه لحظة، ومن يتولى عبادة الله تعالى و طاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، و من شروط الولي أن يكون محفوظا ." [11]

فهي شخصية ذات ملامح و سمات تميزه فنيا عن باقي الشخصيات ، ولهذه اللفظة دلالة شعبية إذ كثيرا ما يتردد على ألسنة العوام " وهم بصدد قضاء حاجة معينة بإقامة النذور للولي الفاني، و كان استرضاه و استمالته يجلبان الحظ في الحياة أما غضبه و سخطه يسببان التعاسة، و فشل المتضرع في مسعاه، فالولاة يشغلون وسائط روحية بين الله عز و جل و عباده.

ومن أهم ملامح الصوفية في هذا المتن الروائي :

أ_ اللغة :تتوزع لغة هذه الرواية بين لغتين متباينتين :

- ✓ لغة السرد : وهي لغة تسجيلية توثق الأحداث و تخبره عن مسار الرواية
- ✓ لغة التجربة الصوفية : وهي التي تظهر ملامح الصوفية في ألفاظها و معانيها إذ جعلت من الحكاية الصوفية مدارا للسرد ، فمن أهم ما تميزت به لغة هذه الرواية التبليغ "أي اللغة التي تتوخى صيغة الإبلاغ في الأمر و الإقناع ،ولا يتسنى للمتلقي الرفض لأنها لغة تبلغ بأن هذا الأمر هو سبيل الخلاص و التغيير "[12]وفي مثل هذا أمر الولي الطاهر

لإحدى المريدات في المقام قائلا "لإحياء في الدين لقد كلفني الله برعايتكن ، فيجب أن اعلم بكل صغيرة و كبيرة في حياتكن بالمقام الزكي"[13].

و يظهر الولي الطاهر هدفه من العودة إلى الأرض بلغة إبلاغية تقريرية يقول :" نعود الجهاد في سبيل الله ، إلى ما كان عليه، و نستأنف الفتوحات. نستعيد القسطنطينية ، والمغرب و الأندلس، و نصل هذه المرة، موسكو و باريس و كوبنهاقن، والهند و السند وكل العالم. يدخل الناس أفواجا في دين ربهم أو يدفعون الجزية."[14]، بلإضافة إلى تميز اللغة بالقصر و الايجاز في معظم خطابات وحوارات الولي الطاهر كالحوار الذي دار بين الولي وبين وبين أحد المريدين في المقام:"جلس الطالب الأول قبالة الولي الطاهر فبادره بالسؤال:

_ ذكرني بما أسمتك به أمك .

_مالك بن نويرة .

_هكذا.مالك بن نويرة الجفول،دفعة واحدة.

_نعم يا مولاي .

_أولا تدري أنه مات مرتدا، على يد خالد بن الوليد؟"[15]

ب_ الرمـــــــز:من بين أهم التقنيات والوسائل الذي يعتمدها الروائي ، والذي يتجلى بالتلميح والإشارة بدلا من التصريح والوضوح ،فالخطاب الصوفي هو خطاب مغرق في الرمز والتجريد وهذا ما يظهر بجلاء في العناوين الفرعية للرواية "تحليق حر" ، "العلو فوق السحاب" "السبهللة" ،" في البداية كان الإقلاع" ...إلخ ، فهذه العناوين تتميز بالغموض والإبهام إذ يحتاج القارئ لفهمها التسلح بثقافة واسعة والعودة إلى التراث وعلى الخصوص الفكر الصوفي في التراث الإسلامي ونشأته وأبرز أساسياته كما أشار الروائي في مقدمة رواياته.

ج_ التنـــــــاص: تتعالق شخصية الولي مع شخصيات رجال الصوفية البارزين كالسهروردي والذين يتخذون من الكتاب والسنة مرجعهم الأساسي إلا أنهم يتبنون بقية الإيديولوجيات المعاصرة وأعلامها، وهذا ما جعل شخصية الولي شخصية متزعزعة الاتجاه غير مستقرة على توجه وانتماء ثابت يقول وطار"لقد قرأ الفلسفة وسكنه من سكن السهروردي، فعاد في كتبه الأولى يبحث في جذور الوثنية في تجاويف الوديان والأهرامات،ثم سوى بين الإخوان المسلمين و الملاحدة والشيوعيين، وراح يستنطقهم في أعمال كثيرة ، ثم "سجن" الله في حارته وجعل الأنبياء فتوة العهود المختلفة .فهمه النصارى واليهود فكافئوه ليكون رمزا وقدوة لمخنا الفاسد"[16]، وتشير سعاد عبد الله العنزي إلى أن هذا النص إن كان يبين مرجعية الولي الطاهر الفكرية فإنه يتماهى وشخصية ومرجعية الإرهابي الوصولي في المتن الروائي المقدم في هذه الرواية [17].

فالولي شخص مثقف واع بقيمة العلم والعمل ، ولكن النظم السياسية شتت آماله وأحلامه ، فأصبح ذات مهمشة لجأ إلى الله والتقرب منه لإقامة دولة إسلامية جديدة على أسس غير سليمة وسيلتها الدم و القتل"[18].

د_ الحلم: ومن الأدوات والتقنيات التي يرتكز عليها التجريب الصوفي"الحلم" للكشف عن المجهول وارتياد المطلق، لأن الحلم يفكك الواقع إلى عناصره الأولية ويعيد تركيبه على نحو لا يخضع فيه لقوانين الواقع الخارجي متجاوزا معطياته ، وإذا كان الحلم لغة التعويض باعتباره تجاوزا وعبورا من المحدود إلى اللامحدود فقد لجأ إليه المبدع اكتشف اضطهاد

الكلمات وتبرج الألفاظ والجمل، فالحلم لغة بعث وإبلاغ وتلقي ويراه الصوفية على أنه جسر بين عالمي الحس والبرزخ ، وأنه أداة ناقلة للصور التي يراها المبدع في العالم المغيب وكما أشار ابن عربي" إن الحلم حالة تنقل العبد من مشاهدة عالم الحس إلى شهود عالم البرزخ وهو أكمل العالم فلا أكمل منه ويرد ما ليس قائما بنفسه قائما بنفسه ولا صورة له يجعل له صورة ، ويرد المحال ممكنا ويتصرف في الأمور كيف يشاء"[19] إذ يمثل مساحة لتجسيد كل المتناقضات والانفعالات النفسية بين الإنسان والأشياء هو هروب إلى المطلق ومحاولة الإمساك به، ويشير الطاهر وطار الى هذه التقنية من خلال الشطحات الصوفية التي يقوم بها الولي ومسألة التحليق يقول:" :" عندما يسقط الولي الطاهر في حصيرة طيبة لا حد لا لمكانه ولا لزمانه ومحاولة معرفة ذلك إفساد للحالة"[20]، وعن استفاقته من حالته الصوفية يعجز أيضا عن معرفة مدة غيابه وهو مغمى عليه "لا يدري الولي الطاهر كم استغرقت هذه الغيبة فقد تكون لحظة وقد تكون ساعة كما قد تكون قرون عديدة"[21].

إن حالة الحلم أو المنام هي فقدان للزمان أو المكان معا وهي حالة شبيهة بحال المتصوفة الذين يسافرون بأرواحهم عبر الملكوت المجهول ، فيسرد ما رأى حين عودته من سفره ، فأمام عجز اللغة العادية عن التعبير عما يختلج نفس الروائي يجنح إلى استعمال اللغة الصوفية لإيراد المعنى بشكل رمزي إذ يلمح دون أن يصرح بما يريد فاسحا المجال للقارئ الذكي للتأويل والفهم فكل من الكاتب الصوفي والكاتب الروائي" لا يكشف أسرار اللغة بل يفضح عريه أمام تلك الأسرار ويسجل غيابه بلغة الإدهاش والذهول والإنصات والرؤيا والحلم كلما الإدهاش و الرؤيا ضاق الخطاب ، وكلما اشتدت نشوة الصوفي تقلص وضوح العبارة وانسحب ليترك أمام القارئ بياضات تفزعه لأنها ممتلئة بأشباح وصور يصعب إدراكها انطلاقا من مواضعات الحس السليم و بداهته"[22].

وهكذا يعيش الولي الطاهر من خلال رحلته نحو المقام الزكي حالة تشضي الذات يستعرض أوجهه المختلفة وهو في كل واجهة ضياع للأمة العربية التي راحت تحاكي الغرب في كل شيء بعد عجزها عن مسايرة العولمة ، إلا أن الحل كما أشار الروائي هو زواج الولي الطاهر "بالمهدية"التي ترمز للعقل إذ تستفيق الأمة وتتطلع بعين العقل والدين إلى الحياة وتحاول مواكبة ما تخاف.

سعى الطاهر وطار في هذه الرواية إلى تقديم شخصيات ومصائر قدرية تخضع لتحولات ذات علاقة بالمسخ والغيب والاختفاء والموت والحاضر و الماضي وهذا ما يصبغها بصبغة عجائبية أيضا إلى جانب التوجه الصوفي لها وهذا ما تؤكده بداية الرواية إذ يقول الولي الطاهر:" يا من هنا، يا من هنا أنتم يا معشر المريدين والمريدات ، أنا شيخكم الولي الطاهر صاحب المقام الزكي ، أعلمكم بعودتي أنتكم يا من هنا إنسا أم جنا كنتم أنا شيخكم الولي الطاهر صاحب المقام الزكي".[23]

4_إشكالية تلقي النص الروائي الصوفي:

إذا كانت الرواية العربية قد صاغت لنفسها منهاجا تسير ضمنه تحت مظلة التجريب متخذة من الخطاب الصوفي بما يحمله من خصوصية التجربة ملاذا لها ،فإن القارئ المتلقي لهذا النوع من الخطابات يجد إشكالا في فهمها وتفسيرها لأن المحمولات المعرفية للخطاب الصوفي لا تنسجم مع طبيعة التلقي وثقافة ومعارف المتلقي ،أي ما يسمى بالكفاية اللغوية

والمعرفية التي تلزم التفاعل بين النص والمتلقي حتى يحقق التواصل بينهما إذ" يسعى القارئ إلى محاولة إدراك السبل التي يسلكها المؤلف بغية فهمها وفهم تجربته ، ففي كل نص جانبان:"جانب موضوعي يشير إلى اللغة وهو المشترط الذي يجعل عملية الفهم ممكنة ، وجانب ذاتي يشير إلى فكر المؤلف ويتجلى في استخدامه الخاص للغة ، وهذان الجانبان يشيران إلى تجربة المؤلف التي يسعى القارئ إلى إعادة بنائها بغية فهم المؤلف أو فهم تجربته".[24]

جاء الخطاب الصوفي المستدعى داخل الرواية مثقلا بالمعاني فلكل كلمة دلالات خاصة بها ولغته لغة مكثفة المعنى ولهذا استوجب حضور متلقي خاص به لأنه انفتاح على الغريب والطريف والمدهش والعجيب والمخالف للعادة ،فكل هذا يصدم المتلقي بما يطرحه من رموز وإشارات تتجاوز فهم المتلقي إلى مجال التأويل مدركا مقاصد كلام رجال الصوفية وما دام كل تأويل"غايته معرفة قصد الكاتب ،فإن القارئ يعمد إلى فك الشفرات اللغوية التي وضعت لتشير إلى خارج النص أكثر من إشارتها إلى داخل النص"لأن لغة التأويل هي لغة الحدود التي تصل بين المرئي و اللامرئي"[1].

فاتباع التجريب الصوفي في الكتابة الروائية يعد وشاية حقيقية لما يجول في خاطر المؤلف وتوجهاته ونزاعاته ،إذ يسعى هذا الأخير من خلال توظيفه لهذا النوع من الخطاب الى إغراء القارئ المتلقي"بدعوته إلى تلذذ نصه من خلال بنياته التركيبية العجيبة وما شكله من واقع إدهاش ونظم لذيذ المآخذ ومن مجاز و مخيال لافت ، وهذه كلها عناصر فعالة تندس وراء أستار اللغة"[26]، فللخطاب الصوفي هيبته الخاصة لأن وروده المفاجئ في النص يجعل المتلقي يتشبث به لمعرفة أبعاده الروحية الخفية "لقد أدرك المتصوفة أن إثارة الاستغراب و الاحتمالية التي تتسم بها الشطحات كفيلة بخلق تفاعل بينهم وبين الآخرين ..."[27]، إذ يسعى المتلقي إلى تفكيك عناصر هذا الخطاب من مصطلحات وتوليفات صوفية لإعادة تركيبه بحسب مستوى القراءة وقدرة المتلقي على اغتصاب الألفاظ كما قال الجاحظ فيصبح التلقي إبداعا جديدا ولغة فوق لغة، لذلك فالنص نصان:"نص موجود تقوله لغته ونص غائب يقوله قارئ منتظر "[28]

على سبيل الختام:

توصلنا في الأخير إلى مجموعة من النتائج نذكر منها:

- إن اتباع هذا النسق في الكتابة الروائية يجهد الكاتب عقليا في محاولته خلق نسخة شديدة الشبه بالعالم الصوفي وأبعاده المرموزة الغامضة، فالروائي ينطلق من ثنائية قارة أثناء نسجه لعمله وهي"الواقعي والمتخيل" ،أما الصوفي فيبتعد كل البعد عن قصدية التعبير عن النسخة الواقعية والتاريخية للوجود الإنساني ، وهذا ما يحدث الهوة بين العالمين ،فلا يستطيع الخطاب السردي الانسلاخ عن الرصيد الواقعي أو التاريخي الذي يسيطر على عقل الكاتب ، في حين أن الخطاب الصوفي يصبو إلى تحقيق كل ما يحدث الانقطاع و الابتعاد عن كل ما هو واقعي.
- إن الخطاب الصوفي المستدعى داخل الرواية باعتباره جنس تعبيري له حمولته المعرفية والثقافية والفنية وله أدواته وتقنياته لا يثبت على الإطلاق توجه الرواية توجها صوفيا ،فلا يمكننا أن نسمي هذا النوع من التجريب الجديد على أنه رواية أو قصة صوفية فهذه الأخيرة "جنس أدبي موصوف بمذهب فكري وديني ومعرفي(الصوفية) فهي إذن تطرح في بناها التعبيرية وأساليب تشكيل رؤيتها الفنية والموضوعية مفهومات فكرية ودينية ،بل تمثل فلسفته في الوصول إلى الحقيقة والسعادة والكمال، فهي أدب معرفي أو من قبيل تحميل الأدب إيديولوجيا والنظر في أنظمته المجردة والمسطرة في طروحات

مصنفات الصوفية الكثيرة"[29]، فتسلل إلى عالم التصوف عبر المعجم اللغوي و التناص ،وترصيع النص بالألفاظ المؤثرة وصبغه بصبغة صوفية خالية من ذلك الفيض الروحي الوجداني اللاورائي لا يعد إلا حيلة أسلوبية اتبعا صاحب النص ليميز نصه ، ولا تعني بأنها نص صوفي في معناه ودلالته.

- يتشكل الخطاب السردي نتيجة تضافر مجموعة من الدعائم والعناصر مثل: الزمان والمكان والشخصيات والأحداث ، فأساس البناء السردي زمن الحدث والزمن الشخصي الذي ينهار تماما أمام الزمن الصوفي المتصل بالبراح المطلق ولا يخضع للمفارقات الزمنية المعروفة ، فهو زمن برزخي منطلق لا حدود له ، أما المكان فهو مكان روحي سرمدي لا يمكن تحديد جسد بداخله ،وبهذا يحدث الخلل في الوظيفة التواصلية المنشودة في النص السردي إذ يصطدم القارئ بنوع من التعتيم و الاندهاش لما يحمله هذا النص فيسعى جاهدا إلى ملء تلك الفراغات في محاولة تفكيك شفرات ورموز الخطاب الصوفي داخل الرواية ، إذ لا يعدو أن يكون هذا النوع من التجريب إلا مقاربة لعالم المتصوفة الغامض من خلال الممارسة السردية.

الهوامش:

[1] _ محمد امنصور، استراتيجيات التجريب في الرواية المغربية المعاصرة ، ط1، الدار البيضاء المغرب 2006_ً.61

[2] _ محمد عز الدين تازي: التجريب الروائي وتشكيل خطاب روائي عربي جديد، المجلس الأعلى للثقافة الدورة الخامسة لملتقى القاهرة للإبداع الروائي العربي "الرواية العربية الى أين؟" 12_15 ديسمبر 2010

[3] _ينظر: صلاح فضل ،لذة التجريب الروائي ،أطلس للنشر ةالإنتاج الإعلامي ص3.

[4] _ المرجع السابق ص5

[5] _ عز الدين تازي، المرجع السابق ص5

[6] _ينظر:وذناني بوداود ، الشخصية الدينية في الرواية العربية المعاصرة(دراسة نماذج) اطروحة دكتوراه ، جامعة وهران، 2002_.2003

[7] _ ناجي حسين _المعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلة المعرفة) دار الجيل ط1، 1992، ص.199

[8] _ محمد أدادا ،نالصوفي الروائي ، مجلة فكر ونقد ،2001ص81

[9] _ الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، موفم للنشر والتوزيع الجزائر 2004، ص8

[10] _سعاد عبد الله العنزي , صور العنف السياسي _دراسة نقدية دار الفراشة للطباعة و النشر ط1 2010 ص 208

[11] _ سعاد عبد الله العنزي مرجع سابق ص 208

[12] _ سعاد عبد الله العنزي ص 210

[13] _ طاهر وطار الولي الطاهر يعود الى مقامه الزكي ، ص 64

[14] _ الرواية ص 60

[15] _ الرواية ص.69

[16] _ الرواية ص.68

[17] _ ينظر: سعاد عبد الله العنزي مرجع سابق ص .212

[18] _ينظر المرجع نفسه ص .212

[19] _ ابن عربي، الفتوحات الملكية، تح عثمان يحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،ج2، ط2 ،1985ص.183

[20] _ الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود الى مقامه الزكي ص.15

[21] _ المرجع نفسه ص15

[22] _ عبد الحق منصف، أبعاد التجربة الصوفية ، الحب والإنصات الحكاية، افريقيا للنشر 2006_ص.231

[23] _ الرواية ص

[24]_ نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل ،المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط6 _2001،ص.21

[25]_ أمينة غصن ،قراءات غير بريئة في التأويل والتلقي ،ص46

[26]– عميش عبد القادر، الأدبية بين تراثية الفهم وحداثة التأويل _مقاربة نقدية لمقول القول لدى أبي حيان التوحيدي، منشورات دار الأديب وهران، ص.123

[27]_أمينة بلعلي، الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي ،مخطط رسالة دكتوراه،جامعة الجزائر 1999–2000،ص158

[28]_منذر عياشي ، مقالات في الأسلوبية ،دمشق اتحاد الكتاب العرب 1980،ص144

[29]_ ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي _المكونات والوظائف والتقنيات_ص9